دراسات

القيم في منهاج التربية الإسلامية: بين الخصوصية الديداكتيكية والكونية الإنسانية

محسن اعريوة

مركز أفكار للدراسات والأبحاث
Afkaar Center for Studies and Research

ALL RESERVED©2021
جميع الحقوق محفوظة © 2021

القيم في منهاج التربية الإسلامية:

بين الخصوصية الديداكتيكية والكونية الإنسانية

محسن اعريوة[1]

السياق التاريخي لتبلور مفهوم القيم:

لقد كانت دراسة القيمة في أوروبا مبدأ أساسيا في الاقتصاد، وظهرت نظريات عديدة تبحث في طبيعتها، إلا أنها لم تعرف عمليا كواحدة من المواضيع الفلسفية الأصيلة إلا في القرن التاسع عشر. صحيح أن الفلاسفة القدامى ناقشوا موضوعات مثل الخير والحق والفضيلة والعدالة والجمال والصدق... وكذلك ما تم تداوله في الفكر الإسلامي عن الأخلاق والفضائل.. إلا أن تصور القيم لم يتضح إلا في الفلسفة المعاصرة حيث صار يشغل منزلة الصدارة بين موضوعات الفلسفة من حيث الأهمية والحاجة. ولهذا يعد ردولف هرمان لوطزه (1781-1871) أول من حلل القيمة من الناحية الفلسفية، لأنه ارتأى أن نقطة البداية في الميتافيزيقيا هي الأخلاق.

أما القيم في الخطاب العربي الإسلامي فلا نكاد نجد دراسة فلسفية تؤرّخ لها، ولعل الجابري أكّد على خلو الثقافة العربية الإسلامية من مؤلفات في "تاريخ الفكر الأخلاقي" ولو من النوع الذي كتب في "تاريخ الفلسفة العربية" سواء من طرف مستشرقين أو أساتذة عرب. على أن هناك ما هو أخطر من كل ذلك وهو تسليم جل الذين عرضوا للموضوع

[1] باحث مغربي، متخصص في قضايا التأويل وعلوم التربية.

بفكرة "أن العرب لم ينتجوا لا في الجاهلية ولا في الإسلام فكرا أخلاقيا باستثناء ما رردده بعض فلاسفتهم من آراء في إطار ما نقلوه عن فلاسفة اليونان"[2].

وفي سياق موجة العولمة الجارفة، ظهر الحديث عن القيم الكونية، ونجد هانز كينج[3] وهو عالم لاهوت كاثوليكي يؤمن بأن الديانات العالمية تتشارك في العديد من القيم وهي في عمقها النهائي حريصة على سعادة الإنسان وذلك بتقديم التوجه الديني الأساسي، أي السند والعون والأمل ومنحنا الكرامة الإنسانية والحرية الإنسانية والحقوق الإنسانية... وينطلق من هذا الإيمان لوضع مشروعه العظيم عن "أخلاق كوكبية" يمكن أن يتفق على مبادئها جميع المؤمنين في جميع الأديان –بل وأصحاب النزعة الإنسانية من غير المتدينين- ويكوّنوا تحالفا مشتركا لخير البشرية. ونتج عن فكرة كينج هذه "الإعلان عن الأخلاق العالمية" الذي أقرّه برلمان الأديان العالمية الذي انعقد في شيكاغو سنة 1992، وهذا البرلمان ليس مؤسسة رسمية، كما أن أعضاءه لا يمثلون سلطات دينية رسمية. ولكن هذا لا يجرّد الإعلان من أهميته، وإنما يؤكد أن أفكار كينج تلقى ترحيبا واسعا وتقدم إمكانية حقيقية للتفكير بصورة تتفق اتفاقا كاملا مع المبادئ التي تقوم عليها الأديان المختلفة.

ومن هنا تم طرح ثنائية الديني والكوني واعتبار الكوني يتسامى ويتعالى على الديني، وتأكيد كذلك الجدلية القائمة بينهما بحيث أن المعطى الديني هو مجموعة قيم مخصوصة والمعطى الكوني هو جملة قيم مشتركة بين كافة البشر. ومن هذا المنطلق فقد حث المنهاج الدراسي لمادة التربية الإسلامية على القيم الكونية والانفتاح على الثقافات والحضارات الإنسانية في عديد من المواضع. وعليه فما هي هذه القيم الكونية التي دعا إليها المنهاج؟ ألا تعتبر قيم الإسلام قيما كونية تقوم على الحب والاحترام والسلم والتعايش والتسامح..؟ ألا يعتبر الإسلام كاملا كي تكون فيه قيما خاصة بالزمان والمكان والإنسان وقيما عابرة للحدود والقارات؟ ولماذا هذا الفشل الذريع لخطاب الكونية في زمن الحداثة وما بعد الحداثة؟ وهل حقا ترجم المنهاج الدراسي هذه الرؤى الكونية في الدروس؟

---

[2]- انظر: العقل الأخلاقي العربي: دراسة تحليلية نقدية لنظم القيم في الثقافة العربية، محمد عابد الجابري، مركز دراسات الوحدة العربية- بيروت، ط1، 2001.

[3] - نشر أول كتاب في هذا الموضوع سنة 1990 تحت عنوان "مشروع الأخلاق العالمية" ثم كتاب "المسؤولية الكوكبية في البحث عن أخلاق عالمية جديدة سنة 1991.

أولا: القيم الكونية: المفهوم والأبعاد.

1- مفهوم القيم الكونية.

يعد مفهوم القيم الكونية من أكثر المفاهيم ضبابية وتعقيدا في واقعنا، إذ عَرف في الآونة الأخيرة رواجا واسعا في العديد من المجالات، وأصبح أمرا مقدسا ومسلما لطائفة مهمة من المثقفين والتربويين وهيمن على خطاباتهم، لهذا سأحاول مقاربة المفهوم من زاوية فلسفية. فالقيمة ابتداءً؛ قدْر الشيء أو مقداره، أما في الاصطلاح فهي تدل على معان كثيرة بحسب المجالات التي ترد فيها، ففي المجال الفلسفي تفيد "القيمة": "المعنى الخُلُقي الذي يستحق أن يتطلع إليه المرء بكليته ويجتهدَ في الإتيان بأفعاله على مقتضاه"، فهو المعنى الذي يجمع بين استحقاقين اثنين:

استحقاق التوجّه إليه؛

واستحقاق التطبيق له؛

وبناء على هذا التحديد الفلسفي الإجمالي لكلمة "قيمة"، يجوز أن نستعمل لفظين آخرين يَسُدّان مسدَّها، أحدهما اختص به الفلاسفة، وهو لفظ "المثال" أو قل "المثال الأعلى"؛ ونذكر من المُثُل التي اشتغل بها هؤلاء قديما: الخير والحق والجمال.. ومن تلك التي يشتغلون بها حديثا: الحرية والمساواة والعدل.. أما اللفظ الثاني، فقد اختص به علماء الأصول، وهو لفظ "المصلحة"؛ ونذكر من المصالح التي أجمعوا على دلالة النصوص الشرعية عليها الخمسة الآتية، وهي: الدين والعقل والنفس والمال والعِرض"[4].

والكونية أو الكوني Universel، فالشائع بين الناس أن ما يتقاسمونه إنّما يشملهم كلّهم لذلك فهو مشترك بينهم. أما في علم المنطق، فغالباً ما يستخدم مفهوم الكوني للدلالة على أن القضية المنطقية التي تشير إلى جملة من العناصر أو الأفكار هي التي يشملها الحكم نفسه، مثل القول الشائع: كل إنسان فان، سقراط إنسان. بحيث يصير الحكم فيها شاملا كل إنسان من دون استثناء. بينما في الاستخدام الفلسفي العام، فإنّ الكوني غالباً ما

---

[4] - تعددية القيم: ما مداها؟ وما حدودها؟، طه عبد الرحمن، المطبعة والوراقة الوطنية- مراكش، ط1 2001، ص: 11-12.

يدلّ على فكرة معيّنة أو قيمة ما عليا منظوراً إليها بوصفها مُثُلا أعلى، مثل (الخير، الجمال، العدل..) وقد يدلّ الكوني أيضا على منظورية قيمية أخرى قادرة على تأطير الإنسانية في كلّيتها وشموليتها مثل: السلام، العدالة، الحرية..

2- الأبعاد الإبستمولوجية للقيم الكونية.

لقد بدأت جدلية الديني "المسيحية" والكوني "الفلسفة اليونانية بما هي نسق ميتافيزيقي نظري وعملي" منذ العصر المسيحي الأول، خصوصا مع آباء الكنيسة الأوائل كالقديس أوغيسطين وتلميذه توماس الأكويني.. وذلك كون النظر الفلسفي العقلي يقوم على مبادئ البرهان المنطقي والإقناع الفكري، بينما يتأسس التفكير الفلسفي على مبدأ التسليم القلبي والوجداني.. وهكذا عرفت الثقافة الإسلامية هذه الجدلية فيما بعد، خصوصا بعد حركة الترجمة ما يعرف بـ"ثنائية العقل والنقل"، ثم انتقلت إلى الثقافة المسيحية اللاتينية مجددا في العصور الوسطى المتأخرة؛ أي القرون 12 و 13 و14 لينتج عن هذا الثورة الكوبيرنيكية التي أحدثت هزّات نظرية وفلسفية أدّت إلى فصل الديني عن الكوني بإطلاق فيما بعد[5].

ولعل تيم والاس كان واضحا في الحديث عما يدين به الغرب للحضارة الإسلامية، ومدى حضور القيم الإسلامية في تعامل المسلمين مع غيرهم، حيث يقول: "لقد حافظ العلماء المسلمون على علم اليونان القديم وحسنوه، ووضعوا أسس العلوم والطب والفلك والملاحة الحديثة وألهموا بعض إنجازاتنا الثقافية. ولو لم يكن نتيجة التسامح المتأصل مع أهل الكتاب الجلي داخل العالم الإسلامي طوال 15 قرنا، لكان من المشكوك فيه جدا أن يتمكن الشعب اليهودي من البقاء بشكل كيان عرقي وديني.. ونحن في الغرب ندين للعالم الإسلامي بدَيْنٍ لا يمكن تسديده كليا. على الرغم من جذورنا الدينية والروحية المشتركة، فقد عَبّرنا عن شكرنا لهم بقرون من الارتياب ووحشية الحملات الصليبية والهيمنة الإمبريالية التي تجري بلامبالاة قاسية تجاه حاجات الشعوب التي قمنا باستغلالها.

ثم تساءل؟

---

[5] - انظر: العنف في تاريخ الفكر النظري: إشكالية العقل والإيمان نموذجا، عبد المجيد باعكريم، منشورات وليلي-مكناس، أبريل 2009.

-هل يستطيع العالم الإسلامي أن يحل مشكلاته؟ لقد قام بذلك في الماضي، وبفضل المبادئ الأساسية في دينه، لقد فعل ذلك بتسامح واحترام تجاه المعتقدات والثقافات الأخرى"[6].

وهنا نجد المهدي المنجرة يميز بين حرب القيم وحرب الديانات أو حرب الحضارات (بتعبير صامويل هنتينغتون)، بحيث نجد الكثير من الأشخاص الذين يدافعون على نظم القيم الحضارية، ليسوا بالضرورة ممارسين لديانات تلك الحضارات، ولهذا أكّد المنجرة "على أنه من الواجب إعطاء الأهمية للقيم، لأن هذه القيم ستكون أحد الأسباب الرئيسية للحروب القادمة وللنزاعات والصراعات.. والحل الوحيد لضمان السلام، هو تحسين التواصل الثقافي بين الشعوب والحضارات"[7].

ثانيا: اختيار المنهاج للقيم الكونية وأثر ذلك في الدروس.

1- الاختيارات والتوجهات العامة:

لقد استندت الدعوة إلى مراجعة مناهج التربية الإسلامية إلى مجموعة من المبررات والأسباب، بعضها مرتبط بسياقات دولية وأخرى محلية... وعندما نرجع لمختلف الوثائق المؤطرة للمنهاج المغربي والتي واكبت عملية تغيير المناهج نجد حضور مهم للاختيارات والتوجهات التربوية العامة، ومن بينها: المعرفة الكونية والمشترك الإنساني.

نرجع للكتاب الأبيض فنجد: "ليتمكن نظام التربية والتكوين من القيام بوظائفه على الوجه الأكمل، تقتضي الضرورة اعتماد مضامين معينة وفق اختيارات وتوجهات محددة، وتنظيمها داخل كل سلك ومن سلك لآخر بما يخدم المواصفات المحددة للمتعلم في نهاية كل سلك. وتتمثل هذه الاختيارات والتوجهات فيما يلي:

- الانطلاق من اعتبار المعرفة إنتاجا وموروثا بشريا مشتركا؛
- اعتبار المعرفة الخصوصية جزء لا يتجزأ من المعرفة الكونية؛

---

[6]- تيم والاس ميرفي، ماذا فعل الإسلام لنا؟ فهم إسهام الإسلام في الحضارة الغربية، ت: فؤاد عبد المطلب، ط1، 2014، جداول-لبنان، ص 255-257.

[7] - قيمة القيم، المهدي المنجرة، ط2، مارس 2007، ص 12.

- اعتماد مقاربة شمولية عند تناول الانتاجات المعرفية الوطنية، في علاقتها بالإنتاجات الكونية مع الحفاظ على ثوابتنا الأساسية"[8].

عند تأملنا لهذه التوجهات والاختيارات الواردة في هذه الوثيقة نجدها تركز على كونية المعرفة في بعدها الإنساني.

ومن المستجدات التي جاءت بها الوثيقة المنهاجية للتربية الإسلامية إدراج الاختيارات والتوجهات العامة للإصلاحات المستمدة من الميثاق الوطني للتربية والتكوين، ومن بينها "قيم حقوق الإنسان ومبادئها الكونية"[9].

2- مواصفات المتعلم:

لقد حدد المنهاج الدراسي موصفات محدّدة، على المتعلم أن يتمثلها، وقسم هذه المواصفات إلى:

أ- مواصفات مرتبطة بالقيم:

ومن بين هذه المواصفات أن يكون:

- "منفتحا على قيم الحضارة المعاصرة في أبعادها الإنسانية؛
- ملما بقيم الحداثة والديمقراطية وحقوق الإنسان المنسجمة مع خصوصيته الدينية؛
- متمسكا بالسلوك القويم المعتدل والمتسامح والمثل العليا المستمدة من روح الدين الإسلامي"[10].

وهنا نجد المنهاج الدراسي يدعو إلى الانفتاح على مختلف الحضارات والثقافات الإنسانية، والإلمام بقيم الحداثة والديمقراطية وحقوق الإنسان مع التحفظ، حيث استثنى تلك الحقوق التي تتنافى والدين الإسلامي، مع ضرورة التمسك بالاعتدال والتسامح..

ب- مواصفات مرتبطة بالكفايات والمضامين.

---

[8] - الكتاب الأبيض، لجان مراجعة المناهج التربوية المغربية، يونيو 2002، ج1 ص 14.
[9] - منهاج التربية الإسلامية، يونيو 2016، ص 4.
[10] - نفسه، ص 4-5.

هذه المواصفات هي تأكيد لسابقتها، دعا فيها إلى أن يكون المتعلم:

- "قادرا على معرفة ذاته المتشبعة بالقيم الإسلامية السمحة والقيم الحضارية، وقيم المواطنة، وحقوق الإنسان، وبلورة ذلك في علاقته مع الآخرين؛
- ملما بمكونات الثقافة العربية الإسلامية والانفتاح على مختلف الثقافات"[11].

3- مرجعيات وأسس بناء المنهاج.

لقد استند المنهاج في بنائه على مجموعة من الأسس والمرجعيات، ومن بينها مرجعية العلوم الإنسانية في بعدها الكوني، واعتمد في هذه المرجعية على:

- مستجدات الفكر الإنساني في مجال العلوم الإنسانية المنفتحة على قضايا المجتمع والأسرة والاقتصاد والمعاملات المالية وحقوق الإنسان والبيئة والمحيط؛
- الانفتاح على فلسفة القيم ومنظومة حقوق الإنسان المتعارف عليها دوليا[12].

4- مقاصد التربية الإسلامية.

لقد وضع المنهاج للتربية الإسلامية مقاصد وأهداف وغايات أربع كبرى، ومن بينها "المقصد الكوني: ويعني الإيمان بوحدة البشرية من حيث المنطلق والمصير وبتكامل النبوات باعتبارها نور الهداية وحبل الله إلى الخلق. وبهذا يكون الرسول المصطفى نبي الرحمة ونموذج الكمال الخلقي والخلقي خاتم الأنبياء ورسول العالمين"[13].

ومن خلال هذا التعريف للمقصد الكوني الذي اختاره المنهاج نستشف أن كل ما هو كوني؛ فهو مشترك بين الناس دون استثناء، وقد أضاف إلى هذا أن الأديان في عمقها واحدة مما يدلّ على تكامل رسالات الأنبياء، وأن خاتمهم هو النبي محمد صلى الله عليه وسلم. وهذا تعريف جامع ومانع، جامعٌ؛ بكونه يشمل جميع البشر وأن رسالة الإسلام رسالة عالمية في أصلها، ومانعٌ؛ بحيث يردّ على كل الذين يظنّون أن الكوننة هيَ المشترك الإنساني الذي يتجاوز الدين إضافة إلى العرق والإثنية واللون والجنس واللغة..

---

[11] - نفسه، ص5.
[12] - نفسه، ص 6.
[13] - نفسه، ص 8.

5- الأهداف العامة لمنهاج التربية الإسلامية.

من بين الأهداف التي يتواخاها المنهاج الجديد، نجد:

- تنشئة المتعلم (ة) على قيم التعايش والتكافل والتضامن والتسامح والانفتاح واحترام الآخر؛
- اكتساب معارف مرتبطة ارتباطا مباشرا بالقضايا الأساسية ذات الأهمية العالمية؛
- اكتساب قيم وأخلاق وميولات أصيلة تنمو وتنفتح على التراث الوطني والعالمي[14].

6- حضور القيم الكونية في الدروس.

لعل أغلب الدروس التي تحتوي على القيم الكونية تنضوي تحت مدخل الحكمة، كدرس التجمل بمحاسن الأخلاق، الأخوة الإنسانية: حق غير المسلم على المسلم، التعارف والتعايش، العفو والتسامح، التصور الإسلامي للحرية، الرحمة والرفق، الإسلام وبناء الحضارة الإنسانية.. إضافة إلى بعض الدروس في المداخل الأخرى: الرسول صلى الله عليه وسلم يرسي قيم السلم والتعايش (وثيقة المدينة)، الإيمان والفلسفة.

وهنا أركز على الدرس الأخير الذي يندرج ضمن مدخل التزكية، وهو "الإيمان والفلسفة" كأنموذج للتغير الملحوظ بين المنهاج القديم والجديد لمادتنا ولمادة الفلسفة:

فمادة الفلسفة كانت تدرّس ضمن المنهاج القديم ب "الفلسفة والفكر الإسلامي" لكن في المنهاج الجديد اقتصر على "الفلسفة" "باعتبارها تشمل الفكر الإنساني ككل. ذلك أن المنهاج الجديد يعتبر الفكر الفلسفي الإسلامي جزء من التراث الفلسفي الإنساني، ولا مبرر من الوجهة التربوية، لتمييزه وعزله ومجاورته مع الفكر الفلسفي العالمي"[15].

خاتمة:

---

[14] - نفسه، ص 10.

[15] - التوجهات التربوية والبرامج الخاصة بتدريس مادة الفلسفة بسلك التعليم الثانوي التأهيلي، مديرية المناهج، يونيو 2007، ص 4.

العولمةُ ما جاءت إلا لكي تشكك في عالمية القيم الإسلامية، ولهذا فعالمية الإسلام تقتضي فتح حدود العقل والأفكار مع كافّة الملل والنِّحل في جميع المجالات.. والانخراط في العالم اليوم برسالة الإسلام العالمية ضرورة عقلية ومطلب ديني لا محيدَ لنا عنه – إن اعتبرنا حقيقة عالَمية الإسلام التي نزعم- وإلا فلنتقوقع داخل جغرافيتنا ونسدّ منافذ المُثاقفة؛ ونصبح آنئذ أمام إسلام خاص بإنسان داحل زمان ومكان.

وفي هذا السياق توالت وتتوالى دعاوى الإصلاح لتدريسية مادة التربية الإسلامية بيداغوجيا وديداكتيكيا، لكي تصبح مواكبة لمتطلبات العصر، مستجيبة لحاجيات المتعلمين.. إن تعريف القيم الكونية وحقوق الإنسان والعلوم الإنسانية من المفاهيم الأكثر ضبابة في المنهاج، ولهذا تحتاج إلى مجهود مكثّف للكشف عن حقيقتها.

المصادر والمراجع:

- العقل الأخلاقي العربي: دراسة تحليلية نقدية لنظم القيم في الثقافة العربية، محمد عابد الجابري، مركز دراسات الوحدة العربية- بيروت، ط1، 2001.
- العنف في تاريخ الفكر النظري: إشكالية العقل والإيمان نموذجا، عبد المجيد باعكريم، منشورات وليلي-مكناس، أبريل 2009
- تعددية القيم: ما مداها؟ وما حدودها؟، طه عبد الرحمن، المطبعة والوراقة الوطنية- مراكش، ط1 2001.
- التوجهات التربوية والبرامج الخاصة بتدريس مادة الفلسفة بسلك التعليم الثانوي التأهيلي، مديرية المناهج، يونيو 2007.
- تيم والاس ميرفي، ماذا فعل الإسلام لنا؟ فهم إسهام الإسلام في الحضارة الغربية، ت: فؤاد عبد المطلب، ط1، 2014، جداول-لبنان.
- الكتاب الأبيض، لجان مراجعة المناهج التربوية المغربية، يونيو 2002، ج1.
- منهاج التربية الإسلامية، يونيو 2016.

مركز أفكار للدراسات والأبحاث

Afkaar Center for Studies and Research

https:// Afkaar.Center

afkaarcenter@gmail.com

twitter.com/AfkaarCenter

facebook.com/AfkaarCenter

ALL RESERVED© 2021

جميع الحقوق محفوظة © 2021